مركز الأصالة والتجديد للدراسات والبحوث
يعنى بعرض أهم المقالات والتحليلات والخلاصات لكتب مختارة والمتعلقة بالشأن العراقي
العين العراقية
الملحق ملحق بنشرة العين العراقية
الآراء والمقالات لاتعبر بالضرورة عن رأي المركز

روسيا و أوكرانيا وتغيير الجغرافيا

تحليل مركز الاصالة

يندرج النزاع الأوكراني الروسي ضمن النزاعات الجيو سياسية بامتياز حيث تنظر روسيا لأوكرانيا على أساس أنها تاريخيا جزء من روسيا القيصرية، وتعد أوكرانيا ثاني أكبر جمهورية سوفييتية سابقة وتصنف بأنها الخاصرة الرخوة لروسيا إضافة إلى موقعها الجيوسياسي الاستراتيجي وتعتمد على الدعم الروسي وشبكة العلاقات السوفييتية السابقة، وعلى الكثير من التداخل الاقتصادي مع روسيا ودول «الكومنويلث» ويتميز الشرق والجنوب الأوكراني فيها بوصفه المنطقة الصناعية الغنية بثرواتها مقارنة مع غربها ولهذا مدلولاته.

إن شرارة النزاع داخل أوكرانيا انطلقت مع تأجيل وليس إلغاء الرئيس فيكتور يانوكوفيتش الذي وصل الى دفة الحكم بعد انتخابات ٢٠١٠ التوقيع على اتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوروبي لحسابات اقتصادية داخلية ونتيجة الضغط الروسي الهائل الذي يرى في أوكرانيا قلب المشروع الاقتصادي التجاري، وهو المشروع "الاتحاد الأوراسي" الذي يضم روسيا وروسيا البيضاء وكازخستان وقيرغستان وهو عبارة عن اتحاد جمركي تجاري لبناء سوق إقليمية منافسة للسوق الأوروبية خصوصا أن أوكرانيا بكتلتها الديمغرافية (ستة وأربعون مليون نسمة) وقوة منجمية وثروات معدنية تشكل ساحة للتنافس الاقتصادي التجاري، ونتيجة هذا التأجيل أو الرفض حسب ما يفهمه الكثيرون من قبل "يانوكوفيتش" كان الأوكرانيون يحتشدون في ميدان الاستقلال في العاصمة كييف بهدف الضغط على الرئيس لقبول اتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوروبي، لكن الضغوط الروسية على يانكوفيتش الذي اعتبر دائماً حليف موسكو أكبر من الضغط الشعبي وخلال أيام قليلة وبعد رفض العرض الأوروبي، وعد الرئيس بوتين أوكرانيا بتقديم مساعدات بقيمة ١٥ مليار دولار تسلمت أوكرانيا منها مليار دولار كدفعة أولى وتسهيلات في أسعار الغاز وهو ما تصوره بويتن كافياً للحفاظ على أوكرانيا خارج النفوذ الأوروبي، وما تصوره يانكوفيتش كافياً لوضع حد لحركة الاحتجاج المطالبة بعلاقات أوثق مع الاتحاد الأوروبي.

بيد أن الأوكرانيين لم يبتلعوا الطعم، خلال كانون الثاني خاصة بعد إعلان الحكومة تبني قانون منع الاحتجاج في ١٦ كانون الثاني فاتسع نطاق الحركة الشعبية المناهضة ليونكوفيتش، سيما في المقاطعات الغربية التي تشكل مهد القومية الأوكرانية فنشرت حكومة يانكوفيتش قوات الأمن الخاصة في كييف ومدن الاحتجاج الرئيسة الأخرى، بينما بدأت قوات الشرطة في المقاطعات الغربية في التحلل ورفض تنفيذ أوامر وزير الداخلية.

أما ما يمكن قراءته بين السطور ووفقاً لبعض الصحف البريطانية والأمريكية فهو وجود لعبة من واشنطن وأجهزتها الاستخباراتية كجزء من حربها الباردة مع موسكو لعرقلة هذه الاتفاقية وتحقيق عدة مكاسب بضربة واحدة، فالإدارة الأمريكية تعلم جيداً عدم قدرة أوروبا علي تقديم الدعم المالي لأوكرانيا وهو ما أعلنته صراحة كاترين أشتون الممثل الأعلى للاتحاد الأوروبي للشئون الخارجية والأمنية التي اكتفت بإعطاء الوعود فقط، وبذلك يكون أول فائدة تعود علي واشنطن بعد أن استطاعت توريط القارة العجوز في الأزمة الأوكرانية ومن ثم إبعاد خطر اليورو عن الدولار من دون تقديم دعم مباشر، وتأكيداً لذلك فضيحة المكالمة الهاتفية بين " فيكتوريا نولاند" مساعدة وزير الخارجية الأمريكي مع سفير واشنطن في كييف "جيفري بيات"، حيث كان الحديث حول مطالب المتظاهرين ذات الصبغة الاقتصادية وشروط الاتحاد الأوروبي وظروفه لضم أوكرانيا، فكان جواب المسئولة الأمريكية، "ليذهب الاتحاد الأوروبي إلي الجحيم"، وهو ما أثار عاصفة من الانتقادات لدي حلفاء الولايات المتحدة.

يوجد هناك تعارض مصالح واضح بين روسيا وأمريكا في أوكرانيا وبشكل مستمر بل يمكن القول إن هناك لعبة صفرية بين الطرفين في هذه المنطقة الاستراتيجية، فكل ما تربحه روسيا تخسره الولايات المتحدة الأمريكية التي ترى في تمدد روسيا نحو الهيمنة الإقليمية والدولية تهديدا مباشرا لحلفائها الأوروبيين وهي تسعى لتعويض خسارتها الدبلوماسية في سوريا، كما أن روسيا المشحونة بنوع من حنين الماضي السوفياتي لا تتردد حول قضايا أمنها القومي وباعتراف بوتين (كان سقوط الاتحاد السوفيتي اكبر كارثة جيو سياسية في القرن العشرين)، بما قد يدفعها إلى التضحية ببعض مزايا التنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية، حتى وإن بدت بعض مواقفها ملتبسة ببعض أحلامها وطموحاتها الامبراطورية.

• اهمية القرم بالنسبة لموسكو

إن العقدة الجغرافية السياسية الروسية في بناء امبراطوريتها وتوسعها مرتبطة بتواجدها في المنافذ البحرية الدافئة فهي جغرافية حبيسة اليابسة، وكل استراتيجيتها قائمة على التمركز في "ميناء سيباستوبول" في شبه جزيرة القرم الذي يشكل عامل بقاء وتمدد للإمبراطورية الروسية للتوسع في البحر الأسود والانتقال لشرق المتوسط، وفي حال امتداد التظاهرات إليه وخروجه عن السيطرة الروسية فإن ذلك يعني ضياع أسطولها الضخم في البحر الأسود وخسارة روسيا لموانئها في شبه جزيرة القرم وهو أمر لم تسمح به روسيا منذ أيام القياصرة الروس قبل قرون خلت.

يمثل البحر الأسود مدخل روسيا الشاسعة المساحة الوحيد إلى المياه الدافئة والممر الإجباري لتواصلها مع العالم تجارياً وملاحياً، إذ أن سيبيريا الواقعة إلى الشرق من روسيا غير صالحة للملاحة بسبب تجمد المياه فيها، وبالتالي فإن البحر الأسود يعني رئة روسيا الوحيدة جغرافياً وبحرياً ما يجعله يحتل أولوية متقدمة على سلم أولويات الأمن القومي

الروسي وتمثل شبه جزيرة القرم أقرب مناطق أوكرانيا إلى روسيا ثقافياً وتاريخياً وعسكرياً.

منذ تفكك الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ وتقاسم أسطوله في البحر الأسود بين روسيا الاتحادية وأوكرانيا ("وريثة" شبه جزيرة القرم بموجب قرار إداري بتسليمها إلى أوكرانيا السوفييتية اتخذ عام ١٩٥٤ بمبادرة من الرئيس نيكيتا خروشوف ذي الأصول الأوكرانية سنة ١٩٥٤ بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة للارتباط الأوكراني الجغرافي بروسيا وأعاد إليها التتار الذين كان ستالين هجّرهم منها إلى سيبيريا وأوزبكستان).

تبلغ مساحة شبه جزيرة القرم ٢٧ الف كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها حوالى مليوني نسمة ٥٨% منهم من أصل روسي و٢٨% أوكران و١٢% مسلمون تتار والباقون من الأقليات البولونية والآذرية والروس البيض وغيرهم، وظلت شروط بقاء الأسطول الروسي في القرم موضوعا حساسا في العلاقات بين موسكو وكييف وتم تحديد وضع الأسطول القانوني من خلال سلسلة من الاتفاقيات بين الجانبين، وكانت القوى المناهضة لروسيا في أوكرانيا ومنها زعماء "الثورة البرتقالية" الموالية للغرب (عام ٢٠٠٤) قد طرحت مرارا مسألة إنهاء بقاء الأسطول الروسي في شبه الجزيرة لكن الاتفاقية التي وقعها رئيسا البلدين في مدينة خاركوف الأوكرانية عام ٢٠١٠ مددت مدة مرابطة الأسطول الروسي من عام ٢٠١٧ كما ورد في الاتفاقية حتى عام ٢٠٤٢ مقابل دفع روسيا مبلغا مقداره ١٠٠ مليون دولار سنويا كأجرة لقواعدها البحرية في سيفاستوبول.

جاء الانقلاب الأوكراني الأخير الذي أوصل للحكم في كييف قوى لا تخفي عداءها لروسيا ليهدد من جديد بقاء الأسطول الروسي في شبه الجزيرة، الأمر الذي أثار قلقا مشروعا في موسكو فكان من أبرز دوافع دعمها لحراك شعب القرم ضد الانقلاب وتعبيره عن إرادته بالانضمام إلى روسيا، إلى جانب دافع حماية الروس من هجمات القوميين الاوكرانيين المتشددين، ولا شك أن قبول انضمام القرم إلى روسيا سمح لها بإزالة الخطر المحدق بوجودها العسكري في منطقة ذات أهمية استراتيجية بالغة بالنسبة لها، كما أنه رفع هيبتها كدولة تدرك مصالحها وتقدر على حمايتها.

تمثل أوكرانيا بالنسبة لروسيا منطقة حاجزة حيث جهزت القرم بنظام للدفاع البحري (الصواريخ المضادة للأساطيل البحرية)، وبجيش روسي يصل تعداده إلى خمسة وعشرين ألف عسكري"، ووفق المقاربة الجيو سياسية المعاصرة التي يطرحها الأمريكيون فإن من يملك أوراسيا يملك السيادة العالمية، وفي قلب أوراسيا ضرورة محاصرة روسيا في اليابسة ومنع أي تحالفات لإضعاف القوة العالمية الأمريكية خصوصا التحالف المستقبلي الروسي الألماني، وهذا ما يتضح من خلال إصرار الاستراتيجية العسكرية الأمريكية على إقامة الدرع الصاروخي في بولونيا وجمهورية التشيك لمحاصرة روسيا وحبسها جغرافيا".

إن نزاع الهوية في أبعاده المتعددة يحاول أن يحدد مستقبل أوكرانيا المتأرجحة بين الهوية الأوروبية والهوية الروسية، وهذا قدر أوكرانيا دائما التي تعني منطقة الأطراف أو الحدود، فهي تاريخيا منطقة تتنازعها الإمبراطوريات، كما أن الوضع الجغرافي جعل أوكرانيا متعددة الهويات والقوميات، فالهوية الأوروبية اتضحت في حركة "الأورو– ميدان" المطالبة بالانضمام للاتحاد الأوروبي، بينما المنطقة الشرقية المرتبطة صناعيا وتجاريا مع روسيا، فمصلحتها في البقاء تحت النفوذ الروسي.

إن سياسة بوتين تقوم على مواصلة الضغط على أوكرانيا لإبقائها ودمجها بشكل مستمر في الفضاء الاقتصادي المشترك مع روسيا، مع تجريد أوكرانيا على مراحل من قدرتها على التحكم المباشر بقدراتها الصناعية سواء باستيلاء الشركات الروسية أو بمواصلة تسرب العناصر الموالية لروسيا إلى أجهزة الأمن والقيادات العسكرية الأوكرانية بهدف تفكيكها من الداخل".

- **تداعيات ازمة القرم على الشرق الاوسط**

لا بد من الإقرار بأن روسيا التي استطاعت استعادة دورها كلاعب أساسي على الساحة الدولية مستفيدة من الأزمة السورية ومن ارتفاع أسعار النفط والغاز ومن الخسارات المتوالية لأميركا في العراق وأفغانستان والازمات المالية التي يتخبط فيها الغرب قد أصيبت اليوم بانتكاسة كبيرة في المسألة الأوكرانية عندما أصبحت اللعبة داخل ملعبها بالذات.

والسؤال المطروح شرق أوسطياً في هذه الظروف: كيف ستتصرف روسيا تحديداً حيال الأزمة السورية بعد تدخلها العسكري في أوكرانيا وهي لطالما واجهت الغرب بضرورة احترام المواثيق الدولية وعدم التدخل في شؤون الدول الأخرى؟، والمفارقة أن إظهار القيادة الآن في رد الولايات المتحدة على التدخل الروسي في شبه جزيرة القرم يرجح أن يجذب انتباه أصدقاء واشنطن في الشرق الأوسط ولا يمكن أن يكون ذلك بديلاً عما تفعله الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، لكنه قد يفتح الباب أمام قيام حوار جديد مع السعوديين وغيرهم وفي حوار مثل هذا ستركز واشنطن وأصدقائها في الشرق الأوسط على ما يمكنهم أن يفعلوه معاً في سوريا وكيف يمكنهم العمل سوية على ضمان ألا تتحول مصر إلى دولة فاشلة؛ وما الذي يفعلوه حال التوصل إلى اتفاق نووي مع إيران وما الذي يفعلوه إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق كهذا، لكن بدء دورة محادثات جديدة سيكون أكثر صعوبة إذ لا يبدو أن لدى الولايات المتحدة خطة استراتيجية فعالة تفرض تبعات وعواقب على تصرف بوتين اتجاه أوكرانيا، خصوصا أن أي خيار عسكري ضد روسيا مستحيل في ظل توازن الرعب النووي.

يرى بعض المسؤولين أن يكون مؤتمر جنيف ٢ حول سوريا أولى ضحايا أزمة القرم خصوصاً أن فرص إحيائه كانت صعبة جداً قبل تفاقم التوتر بين واشنطن وموسكو وثمة قلق من أن تقلص موسكو تعاونها مع واشنطن في سياق المفاوضات بين مجموعة ٥ + ١ وإيران في شأن برنامجها النووي وأن تعجّل من مفاوضاتها مع طهران لتزويدها مفاعلين نووين، ويقول المتشائمون وهم كثر: بعد فشل جولة الممثل الخاص المشترك للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية في سوريا الأخضر الابراهيمي والتي كانت المحاولة الأخيرة لإنقاذ جنيف ٢ من الانهيار الكامل، ومنذ اخفاق الجولة الثانية من جنيف ٢ وخيبة واشنطن الواضحة من موسكو، بدأ المسؤولون الأميركيون يراجعون خياراتهم في شأن النزاع السوري خارج نطاق التعاون مع روسيا ولكن مع التمسك بتطبيق اتفاق الأسلحة الكيميائية وباتت عملية المراجعة أكثر إلحاحاً بعد أزمة القرم ومع استمرار النجاحات الميدانية للنظام السوري وحلفائه.

إذا ما استمرت الازمة الاوكرانية فإن المرجح أن يكون لها تداعيات محتملة على بلدان الشرق الأوسط، بشكل مباشر من خلال التجارة وغير مباشر من خلال أسعار السلع الأولية، فروسيا وأوكرانيا منتجان ومصدران زراعيان رئيسيان، ففي عام ٢٠١٢ بلغت صادرات روسيا وأوكرانيا ١١ و ٥ % من الصادرات العالمية للقمح، واستأثرت أوكرانيا بأكثر من ١٤ % من صادرات الذُرة العالمية (ثالث أكبر حصة على الصعيد العالمي) ومن المحتمل أن يؤدي اضطراب صادرات روسيا وأوكرانيا إلى خفض حجم التجارة على الصعيد العالمي وبشكل خاص لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وهي واحدة من المنطقتين الأكثر اعتماداً على القمح المستورد

ويذهب أكثر من ٥٠%من صادرات القمح الروسي إلى مصر يليها لبنان والأردن واليمن وتعتمد هذه البلدان أيضاً على أوكرانيا للحصول على أكثر من ٥٠ في المائة من إمداداتها من القمح والذرة (٦٠ في المائة بالنسبة للبنان و ٥٠ في المائة بالنسبة لمصر) وفي حال اضطراب المعروض من روسيا وأوكرانيا فسيتعين على هذه البلدان زيادة وارداتها من مصادر أخرى بأسعار أعلى يمكن أن يكون لها على الأرجح آثار اقتصادية سيئة بشكل هائل.

إن الخيارات المطروحة لحل الأزمة الأوكرانية تتمثل في عدة سيناريوهات منها السيناريو الجورجي الذي يتضح في مؤشراته الكبرى من خلال لعب روسيا ورقة المواطنين الروس في القرم، وهي نفس الاستراتيجية التي طبقتها في أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، وعليه يطرح اليوم سيناريو تجنيس الروس الأوكرانيين، وتشجيع هجرة الروس إلى المجال الحيوي المطل على البحر الأسود، وأن التلويح باستخدام القوة العسكرية في أوكرانيا يعكس مبدأ الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، الذي سوّقه في فترة الانتخابات الرئاسية عندما وجّه رسالة للغرب بعد تهديد مصالح "غاز بروم" الروسية في ليبيا، وقال: "إن أي اعتداء على مصالحنا في مجال الطاقة العسكرية في العالم سيلجأنا إلى استخدم القوة العسكرية للدفاع عنها"، وبالتالي فإن التدخل العسكري في القرم أمر واقعي وجاهز سواء بإعطاء مجلس الاتحاد الروسي الضوء الأخضر لبوتين أو من خلال مطالبة الحكومة والسلطة التشريعية في شبه جزيرة القرم الدفاع الروسي بالحفاظ على أمنها، أما رد فعل القوى الغربية، فيتمثل في كيفية منع موسكو من الانتقال إلى الجناح الغربي الأوكراني ذي الهوية الأوربية . الغربية"، وفي أقصى الحدود فإن روسيا ستراهن على خيار التقسيم بالاستفتاء المزمع إجراؤه في القرم نهاية ايار الحالي (الحكم الذاتي الموسع أو الالتحاق بروسيا) وهي ورقة للضغط السياسي على الحكومة الانتقالية في كييف والاتحاد الأوروبي بضرورة تعطيل انضمام كييف للاتحاد الأوروبي، ويمكن تصور سيناريو تفاوضي تعاوني بين روسيا – أوكرانيا بوساطة دولية فمصلحة أوكرانيا والاتحاد الأوروبي تتمثل في أن يبقى الغاز الروسي يتدفق على الدول الأوروبية لأمنها في مجال الطاقة خصوصا في هذه الفترة، وفي الوقت ذاته فإن روسيا بحاجة للأراضي الأوكرانية حاليا من أجل إمدادات الغاز الأوروبي (ستون إلى ثمانون بالمائة من الغاز المصدر لأوروبا يمرّ عبر أوكرانيا).

إن مستقبل الأزمة في أوكرانيا مفتوح على احتمالات لا يمكن التنبؤ بها إحداها هو التقسيم او الحروب القومية والمذهبية ما سينعكس على دول الجوار برمتها، وهنا يطرح السؤال عن عودة الحرب الباردة بين العملاقين وفي حال التوافق هل سيسمح لأوكرانيا ان تكون جسراً بين الشرق والغرب؟ لننتظر الايام المقبلة!

وفي ظل تلك الازمة التي شكلت صداعا عنيفا لاوربا وامريكا فأن اهمية تركيا ازدادت بشكل كبير وعليه فان القيادة السياسية الحالية في تركيا تمر بمرحلة قوة مضافة خصوصا بعد الانتخابات التركية الاخيرة مما يؤهلها للعب دور اكبر في الملفات الساخنة في الشرق الاوسط.